وأُميتُ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] لأنه ما فعل حقيقة الموت ، ولا حقيقة الحياة[1] ، فأراد إبراهيم أن يُلجئه إلى مجال لا سفسطة فيه ؛ لينهى هذا الموقف ويسدّ على خَصْمه باب اللدد والتهريج ، فقال : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] وكانت النتيجة أنْ حَارَ عدو الله جواباً ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] أى : دُهش وتحيَّر .

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ[2] لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُۥ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩)﴾

﴿ثَانِيَ .. (٩)﴾ [الحج] ثَنَى الشيء يعنى : لَواه ، وعِطْفه : يعنى جَنْبه ، والإنسان فى تكوينه العام له رأس ورقبة وكتفان ، وله جانبان وظَهْر ، وهذه الأعضاء تُؤدِّى دَوْراً فى حياته وحركته ، وتدلّ على تصرفاته ، فالذى يجادل فى الله عن غير علم ولا هدى ولا كتاب منير يَثْنى عنك جانبه ، ويَلْوى رأسه ؛ لأن الكلام لا يعجبه ؛ ليس لأن كلامك باطل ، إنما لا يعجبه لأنه أفلس وليست لديه الحجة التى يواجهك بها ، فلا يملك إلا هذه الحركة .

(١) وذلك أن النمرود قال : « إنى أوتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل ، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل » قاله قتادة ومحمد بن إسحاق والسدى وغير واحد . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣١٣/١) . ثم قال ابن كثير : « والظاهر والله أعلم أنه ما أراد هذا لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا فى معناه . لأنه مانع لوجود الصانع ، وإنما أراد أن يدعى لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ويوهم أنه فاعل لذلك وأنه هو الذى يحيى ويميت » .

(٢) العطف : الجانب . عطفَا الإنسان : جانباه . ويقال : ثنى عطفه : أى : أعرض وابتعد بجانبه . وقوله : ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ .. (٩)﴾ [الحج] . كناية عن الإعراض كبراً وغروراً . [القاموس القويم ٢٥/٢] .

لذلك يُسمَّى هذا الجدل « مراءً » ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) ﴾ [النجم] يعنى : أتجادلون رسول الله فى أمر رآه ؟ والمراء : هو الجَدَل العنيف ، مأخوذ من (مَرْى[1] الضرع) يعنى : حَلْب ما فيه من لبن إلى آخر قطرة فيه ، وأهل الريف يقولون عن هذه العملية (قرقر البقرة) يعنى : أخذ كل لبنها ولم يَبْقَ فى ضرعها شىء .

كذلك المجادل بالباطل ، أو المجادل بلا علم ولا حجة تراه يكابر ليأخذ آخر ما عند خَصْمه ، ولو كان عنده علم وحجة لأنهَى الموقف دون لجج أو مكابرة .

والقرآن الكريم يعطينا صورة لهذا الجدل والإعراض عن الحق ، فيقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) ﴾ [المنافقون]

والقرآن يعطينا التدرج الطبيعى للإعراض عن الحق الذى يبدأ بلَىِّ الرأس ، ثم الجانب ، ثم يعطيك دُبُره وعَرْض أكتافه ، هذه كلها ملاحظ للفرار من الجدل ، حين لا يقوى على الإقناع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٩) ﴾ [الحج] هذه علَّة ثَنْى جانبه ، لأنه يريد أنْ يُضل مَن اهتدى ، فلو وقف يستمع لخَصْمه وما يلقيه من حجج ودلائل لانهزم ولم يتمكّن من إضلال الناس ؛ لذلك يَثْنى عطفه هَرَباً من هذا الموقف الذى لا يَقْدر على مواجهته والتصدى له .

فما جزاء هذا الصنف ؟ يقول تعالى : ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ .. (٩) ﴾ [الحج] والخِزْى : الهوان والذِّلّة ، هذا جزاء الدنيا قبل جزاء الآخرة ،

(١) المَرْى : مَسْح ضرع الناقة لتدر . وناقة مَرِىٌّ : غزيرة اللبن . [لسان العرب ـ مادة : مرى] .

ألم يحدث للكفار هذا الخزى يوم بدر ؟ ألم يُمسك رسول الله ﷺ بقضيب فى يده قبل المعركة ويشير به : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان »(١) ويسمى صناديد الكفر ورؤوس الضلال فى قريش ؟ وبعد انتهاء المعركة كان الأمر كما أخبر رسول الله ﷺ ، وصُرِع كلُّ هؤلاء الصناديد فى نفس الأماكن التى أشار إليها رسول الله .

ولما قُتِل فى هذه المعركة أبو جهل عَلاَهُ سيدنا عبد الله بن مسعود ، سبحان الله ، عبد الله بن مسعود راعى الغنم يعتلى ظهر سيد قريش ، عندها قال أبو جهل - وكان فيه رَمَق حياة : لقد ارتقيتَ مُرْتقىً صَعْباً يا رُوَيْعىَّ الغنم(٢) ، يعنى : ركبتنى يا ابن الإيه !! فأىُّ خِزْى بعد هذا ؟!

وأبو سفيان بعد أن شفع له العباس رضى الله عنه عند رسول الله ﷺ ، ورأى موكب النبى يوم الفتح ، وحوله رايات الأنصار فى موكب رهيب مهيب ، لم يملك نفسه ولم يستطع أنْ يُخفى ما فى صدره ، فقال للعباس رضى الله عنه : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك قوياً ، فقال له : إنها النبوة يا أبا سفيان(٣) يعنى : المسألة ليست مُلْكاً ، إنما هى النبوة المؤيَّدة من الله .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) من حديث أنس - رضى الله عنه - وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩ ، ٢٥٨) أن رسول الله ﷺ قال : « هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا ، قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ .

(٢) قال عبد الله بن مسعود : وجدته بآخر رمق فعرفته ، فوضعت رجْلى على عنقه . فقال له أبو جهل : لقد ارتقيت مُرْتقى صعباً يا رُوَيْعى الغنم . قال : ثم احتززت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله . هذا رأس عدو الله أبى جهل » أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٦٣٦) .

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٤٠٤) : « قال أبو سفيان : سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء ؟ قال : قلت : هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداة عظيماً . قال : قلت : يا أبا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعم إذن » .

وسيدنا أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ حينما استأذن عليه القوم فى الدخول ، فأذنَ للسابقين إلى الإسلام من العبيد والموالى ، وترك بعض صناديد قريش على الباب ، (فورِمَتْ) أنوفهم من هذا الأمر واغتاظوا ، وكان فيهم أبو سيدنا أبى بكر فقال له : أتأذن لهؤلاء وتتركنا ؟ فقال له : إنه الإسلام الذى قدَّمهم عليكم . وقد شاهد عمر هذا الموقف فقال لهم : ما لكم ورِمَتْ[1] أنوفكم ؟ وما بالكم إذا أُذِن لهم على ربهم وتأخرتم أنتم .

فالغضب الحقيقى سيكون فى الآخرة حين يُنَادى بهؤلاء إلى الجنة ، وتتأخرون أنتم فى هَوْل الموقف .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة]

ثم يقول تعالى : ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [الحج]

فهذا الخزْىُ الذى رأوْه فى الدنيا لن يُفلتهم من خزْى وعذاب الآخرة ، ومعنى ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [الحج] الحريق : هو الذى يحرق غيره من شدَّته ، كالنار التى أوقدوها لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وكانت تشوى الطير الذى يمرُّ بها فى السماء فيقع مشوياً[2] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾

---

(١) ورم أنفه . أى : غضب . أى : امتلأ وانتفخ من ذلك غضباً ، وخَصَّ الأنف بالذكر لأنه موضع الأنفة والكبر . وورَّم فلان بأنفه توريماً : إذا شمخ بأنفه وتجبَّر . [لسان العرب ـ مادة : ورم] .

(٢) قال ابن إسحاق : جمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها ، واشتعلت واشتدت حتى أن كان الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدة وهجها . [ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨١)] .

﴿ذَٰلِكَ .. ﴿١٠﴾﴾ [الحج] يعنى خزى الدنيا وعذاب الحريق فى الآخرة بما قدَّمتْ ، وبما اقترفت يداك ، لا ظُلْماً منّا ولا اعتداء ، فأنت الذى ظلمتَ نفسك ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [النحل]

وهل أخذناهم دون إنذار ، ودون أن نُجرِّم هذا الفعل ؟ لأنك لا تعاقب شخصاً على ذنب إلا إذا كنتَ قد نبَّهته إليه ، وعرَّفته بعقوبته ، فإنْ عاقبته دون علمه بأن هذا ذنب وهذه جريمة فقد ظلمتَه ؛ لذلك فأهل القانون يقولون : لا عقوبةَ إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ .

وقد جاءكم النص الذى يُبيِّن لكم ويُجرِّم هذا الفعل ، وقد أبلغتْكم الرسل ، وسبق إليكم الإنذار ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ .. ﴿١٠﴾﴾ [الحج] فهل الذنوب كلها تقديمُ اليد فقط ؟

الذنوب : إما أقوال ، وإما أفعال ، وإما عمل من أعمال القلب ، كالحقد مثلاً أو النفاق .. إلخ لكن فى الغالب ما تُزَاول الذنوب بالأيدى[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ [الحج] ظلاَّم : صيغة مبالغة من الظلم ، تقول : ظالم . فإنْ أردتَ المبالغة تقول : ظلاَّم ، كما تقول : فلان آكل وفلان أكُول ، فالفعل واحد ، لكن ما ينشأ عنه مختلف ، والمبالغة فى الفعل قد تكون فى الفعل نفسه أو فى تكراره ، فمثلاً قد تأكل فى الوجبة الواحدة رغيفاً واحداً ، وقد

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٤٨) : « عبر باليد عن الجملة ؛ لأن اليد التى تفعل وتبطش للجملة » .

تأكل خمسة أرغفة هذه مبالغة فى الوجبة الواحدة ، فأنت تأكل ثلاث وجبات ، لكن تبالغ فى الوجبة الواحدة ، وقد تكون المبالغة فى عدد الوجبات فتأكل فى الوجبة رغيفاً واحداً ، لكن تأكل خمس وجبات بدلاً من ثلاث . فهذه مبالغة بتكرار الحدث .

وصيغة المبالغة لها معنى فى الإثبات ولها معنى فى النفى : إذا قُلْتَ : فلان أكول وأثبتَّ له المبالغة فقد أثبتَّ له أصل الفعل من باب أَوْلَى فهو آكل ، وإذا نفيتَ المبالغة فنَفْى المبالغة لا ينفى الأصل ، تقول : فلان ليس أكولاً ، فهذا لا ينفى أنه آكل .

فإذا طبَّقنا هذه القاعدة على قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ [الحج] فهذا يعنى أنه سبحانه وتعالى (ظالم) حاشا لله ، وهنا نقول : هناك آيات أخرى تنفى الفعل ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف] وقوله تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف]

كما أن صيغة المبالغة هنا جاءت مضافة للعبيد ، فعلى فرض المبالغة تكون مبالغة فى تكرار الحدث ﴿بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ [الحج] ظلم هذا ، وظلم هذا ، وظلم هذا ، فالمظلوم عبيد ، وليس عبداً واحداً .

والظلم فى حقيقته أن يأخذ القوىُّ حَقَّ الضعيف ، ويكون الظلم على قَدْر قوة الظالم وقدرته ، وعلى هذا إنْ جاء الظلم من الله تعالى وعلى قَدْر قوته وقدرته فلا شكَّ أنه سيكون ظُلْماً شديداً لا يتحمله أحد ، فلا نقول - إذن - ظالم بل ظلام ، وهكذا يتمشى المعنى مع صيغة المبالغة .

فالحق سبحانه ليس بظلام للعبيد ؛ لأنه بيَّن الحلال والحرام ، وبيَّن الجريمة ووضع لها العقوبة ، وقد بلَّغَتْ الرسل من بداية الأمر فلا حُجَّةَ لأحد .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج] العبادة : أنْ تطيع الله فيما أمر فتنفذه ، وتطيعه فيما نهى فتجتنبه ، بعض الناس يعبد الله هذه العبادة طالما هو في خير دائم وسرور مستمر ، فإذا أصابه شرٌّ أو وقع به مكروه ينقلب على وجهه ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج]

والحق سبحانه يريد من عبده أنْ يُقبل على عبادته في ثبات إيمان ، لا تزعزعه الأحداث ، ولا تهز إيمانه فيتراجع ، ربك يريدك عبداً له في الخير وفي الشر ، في السراء وفي الضراء ، فكلاهما فتنة واختبار ، وما آمنتَ بالله إلا لأنك علمتَ أنه إله حكيم عادل

(١) سبب النزول : روى فيها عدة روايات ، منها :
- عن ابن عباس قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون فإذا رجعوا إلى بلادهم ، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا : إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به ، وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا : ما في ديننا هذا خير ، فأنزل الله على نبيه ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج] . أورده ابن كثير في تفسيره (٣/٢٠٩) ، والواحدي في أسباب النزول (ص ١٧٥) .
- عن أبي سعيد الخدري قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده وتشاءم بالإسلام ، فأتى النبي ﷺ فقال : أقلني فقال : إن الإسلام لا يقال ، فقال : إني لم أصب في ديني هذا خيراً ، أذهب بصري ومالي وولدي ، فقال : يا يهودي إن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب ، قال : ونزلت : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج] .

قادر ، ولا بد أنْ تأخذ ما يجرى عليك من أحداث الحياة فى ضوء هذه الصفات .

فإنْ أثقلتْك الحياة فاعلم أن وراء هذه حكمة إنْ لم تكن لك فلأولادك من بعدك ، فلعلهم إنْ وجدوك فى سعة وفى خير طَمِعُوا وفسدوا وطَغَوْا ، ولعل حياة الضيق وقلّة الرزق وتعبك لتوفر لهم متطلبات الحياة يكون دافعاً لهم .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝ ﴾ [العلق] وقوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء]

لا بُدَّ أنْ تعرف هذه الحقائق ، وأنْ تؤمن بحكمة ربك فى كل ما يُجريه عليك ، سواء أكان نعيماً أو بُؤْساً ، فإنْ أصابك مرض أقعدك فى بيتك فَقُلْ : ماذا حدث خارج البيت ، أبعدنى الله عنه وعافانى منه ؟ فلعل الخير فيما تظنه شراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ۝ ﴾ [البقرة]

وقد أجرى علماء الإحصاء إحصاءات على بعض بيوتنا ، فوجدوا الإخوة فى البيت الواحد ، وفى ظروف بيئية واحدة وأب واحد ، وأم واحدة ، حتى التعليم فى المدارس على مستوى واحد ، ومع ذلك تجد أحد الأبناء مستقيماً ملتزماً ، وتجد الآخر على النقيض ، فلمّا بحثوا فى سبب هذه الظاهرة وجدوا أن الولد المستقيم كانت فترة تربيته وطفولته فى وقت كان والده مريضاً ويلازم بيته لمدة ست سنوات ، فأخذ هذا الولد أكبر قسط من الرعاية والتربية ، ولم يجد الفرصة للخروج من البيت أو الاختلاط برفاق السوء .

وفى نموذج آخر لأحد الأبناء المنحرفين وجدوا أن سبب انحرافه

أن والده فى فترة تربيته وتنشئته كـان تاجراً ، وكان كثير الأسفار ، ومع ذلك كان يُغْدق على أسرته ، فتـربَّى الولد فى سَعَة من العيش ، بدون مراقبة الأب .

وفى نموذج آخر وجدوا أخوين : أحدهما متفوق ، والآخر فاشل ، ولما بحثـوا أسباب ذلك رغم أنهمـا يعيشان ظروفـاً واحدة وجدوا أن الابن المتفـوق صحته ضعـيفة ، فمال إلـى البيت والقراءة والاطلاع ، وكان الآخر صحيـحاً وسيماً ، فمال إلى حيـاة الترف ، وقضى معظم وقته خارج البيت . والأمثلة فى هذا المجال كثيرة .

إذن : فالابتـلاءات لها مـغانم ، ومن ورائهـا حكَم ؛ لأنها ناشـئة وجارية عليك بحكمـة ربك وخالقك ، وليست من سَعْـيك ولا من عمل يدك ، وما دامت كذلـك فارْضَ بها ، واعبد الله بإخـلاص وإيمان ثابت فى الخير وفى الشر.

ومعنى : ﴿ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. (١١) ﴾ [الحج] والحرف : هو طرف الشىء ، كأن تدخل فتجد الغرفـة ممتلئة فتجلس على طرفٍ فى آخر الجالسـين ، وهذا عادةً لا يكون معه تمكُّن واطمـئنان ، كذلك مَنْ يعـبد الله على حـرف يعنى : لم يتـمكَّن الإيمان من قلبـه ، وسرعـان ما يُخرجه الابتلاء عن الإيمان ، لأنه عبد الله عبادةً غير متمكنة باليقين الذى يصدر عن المؤمن بإله حكيم فيما يُجريه على عبده .

والآية لم تترك شيئاً من هواجس النفس البشرية سواء فى الخير أو فى الشر .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ .. (١١) ﴾ [الحج] وكذلك : ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ .. (١١) ﴾ [الحج] فأنت لا تقول : أصبتُ الخيرَ ، إنما الخـير هو الذى أصـابك وأتاك إلى بابك ، فـأنت لا تبـحث عن رزقك

بقدر ما يبحث هو عنك ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ② وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. ③﴾ [الطلاق]

ويقول أهل المعرفة : رِزْقك أعلم بمكانك منك بمكانه ، يعنى يعرف عنوانك أما أنت فلا تعرف عنوانه ، بدليل أنك قد تطلب الرزق فى مكان فلا تُرزَق منه بشئ ، وقد ترى الزرع فى الحقول زاهياً تأمل فيه المحصول الوفير ، وتبنى عليه الآمال ، فإذا بعاصفة أو آفة تأتى عليه ، فلا تُرزَق منه حتى بما يسدُّ الرَّمَق .

ولنا عبرة ومثَلٌ فى ابن أُذَيْنة[1] حين ضاقت به الحال فى المدينة ، فقالوا له : إن لك صحبة بهشام بن عبد الملك الخليفة الأموى فاذهب إليه ينالك من خير الخلافة ، وفعلاً سافر ابن أذينة إلى صديقه ، وضرب إليه أكباد الإبل حتى الشام ، واستأذن فأذن له ، واستقبله صاحبه ، وسأله عن حاله فقال : فى ضيق وفى شدة . وكان فى مجلس الخليفة علماء فقال له : يا عروة ألست القائل - وكان ابن أُذَيْنَة شاعراً :

لَقَد علمت ومَا الإسْرَافُ منْ خُلُقِي أنَّ الذى هُوَ رِزْقى سَوْفَ يأتينى ؟[2]

وهنا أحسَّ عروة أن الخليفة كسر خاطره ، وخيَّب أمله فيه ، فقال له : جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين ، لقد ذكَّرت منى ناسياً ، ونبَّهْتَ منى غافلاً ، ثم انصرف .

فلما خرج ابن أُذيْنة من مجلس الخليفة ، وفكَّر الخليفة فى

(١) هو : عروة بن يحيى (ولقبه أذينة) بن مالك بن الحارث الليثى : شاعر غزل مقدم ، من أهل المدينة ، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين أيضاً ، ولكن الشعر أغلب عليه . توفى نحو ١٣٠ هـ [الأعلام للزركلى ٢٢٧/٤] .

(٢) ذكر هذا البيت والذى بعده خير الدين الزركلى فى كتابه الأعلام (٢٢٧/٤) من شعر عروة بن أذينة . وانظر : الشعر والشعراء ٢٢٥ ، فوات الوفيات ٣٤/٢ .

الموقف وأنّب نفسه على تصرُّفه مع صاحبه الذى قصد خَيْره ، وكيف أنه رَدَّه بهذه الصورة ، فأراد أنْ يُصلح هذا الخطأ ، فأرسل إليه رسولاً يحمل الهدايا الكثيرة ، إلا أن رسول الخليفة كلما تبع ابن أُذَيْنة فى مكان وجده قد غادره إلى مكان آخر ، إلى أنْ وصل إلى بيته ، فطرق الباب ، وأخبره أن أمير المؤمنين قد ندم على ما كان منه ، وهذه عطاياه وهداياه .

وهنا أكمل ابن أُذَيْنة بيته الأول ، فقال :

أَسْعَى لَهُ فَيُعَنِّينى تطلُّبه ... وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانى لاَ يُعنِّينى

كذلك نلحظ فى هذه الآية : ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ .. (١١)﴾ [الحج] ولم يقابل الخير بالشر ، إنما سماها (فتْنَة) أى : اختبار وابتلاء ؛ لأنه قد ينجح فى هذا الاختبار فلا يكون شراً فى حقِّه .

ومعنى : ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ .. (١١)﴾ [الحج] يعنى : عكس الأمر ، فبعد أنْ كان عابداً طائعاً انقلب إلى الضدِّ فصار عاصياً ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ .. (١١)﴾ [الحج] وخُسْران الإنسان لعبادته خسران كبيرٌ لا يُجْبَر ولا يُعوَّضه شىء ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)﴾ [الحج] فهل هناك خُسْران مبين ، وخسران غير مبين ؟

نعم : الخسران هو الخسارة التى تُعوَّض ، أما الخسارة التى لا عوضَ لها فهذه هى الخسران المبين الذى يلازم الإنسان ولا ينفكُّ عنه ، وهو خُسْران لا يقتصر على الدنيا فقط فيمكن أنْ تُعوِّضه أو تصبر عليه ، إنما يمتد للآخرة حيث لا عوضَ لخسارتها ولا صَبْر على شِدَّتها . فالخسران المبين أى : المحيط الذى يُطوِّق صاحبه .

لذلك نقول لمن فقد عزيزاً عليه ، كالمرأة التى فقدت وحيدها مثلاً : إنْ كان الفقيد حبيباً وغالياً فبيعوه غالياً وادخلوا به الجنة ، ذلك حين تصبرون على فَقْده وتحتسبونه عند الله ، وإنْ كنتم خسرتم به الدنيا فلا تخسروا به الآخرة ، فإنْ لطَمْنا الخدود وشَقَقْنَا الجيوب ، واعترضنا على قَدَر الله فيه فقد خسرنَا به الدنيا والآخرة .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإنْ أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن »[1] .

والصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء مرتبة من مراتب الإيمان ، ومرحلة من مراحل اليقين فى نفس المؤمن ، وهى بداية وعَتَبة يتلوها مراحل أخرى ومراقٍ ، حَسْب قوة الإيمان .

اسمع إلى هذا الحوار الذى دار بين أهل المعرفة من الزُّهَّاد ، وكيف كانوا يتبارونَ فى الوصول إلىَ هذه المراقى الإيمانية ، ويتنافسون فيها ، لا عن مُبَاهاة ومفاخرة ، إنما عن نية خالصة فى الرُّقى الإيمانى .

يسأل أحد هؤلاء المتمكِّنين صاحبه : كيف حال الزهاد فى بلادكم ؟ فقال : إن أصابنا خير شكرنا ، وإن أصابنا شرٌّ صبرنا ، فضحك الشيخ وقال : وما فى ذلك ؟! إنه حال الكلاب فى بَلْخ . أما عندنا : فإنْ أصابنا خير آثرنا ، وإنْ أصابنا شرٌّ شكرنا .

وهذه ليست مباهاة إنما تنافس ، فكلاً الرجلين زاهد سالك لطريق الله ، يرى نفسه محسوباً على هذا الطَريق ، فيحاول أنْ يرتقىَ فيه

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٩٩) كتاب الزهد ، وأحمد فى مسنده (٥/ ٢٤) ، والدارمى فى سننه (٢/ ٣١٨) من حديث صهيب الرومى رضى الله عنه .

إلى أعلى مراتبه ، فإياك أنْ تظن أن الغاية عند الصبر على البلاء والشُّكْر على العطاء ، فهذه البداية وبعدها منازل أعْلَى ومَراقٍ أسمى لمن طلبَ العُلاَ ، وشمَّر عن ساعد الجد في عبادة ربه .

انظر إلى أحد هؤلاء الزُّهَّاد يقول لصاحبه : ألاَ تشتاق إلى الله ؟ قال : لا ، قال مُتعجباً : وكيف ذلك ؟ قال : إنما يُشْتاق لغائب ، ومتى غاب عني حتى أشتاق إليه ؟ وهكذا تكون درجات الإيمان وشفافية العلاقة بين العبد وربه عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه عن هذا الذي يعبد الله على حرف :

﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ﴾

معنى : ﴿ مَا لَا يَضُرُّهُۥ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الحج] هل الصنم الذي يعبده الكافر من دون الله يمكن أن يضره ؟ لا ، الصنم لا يضر ، إنما الذي يضره حقيقة مَنْ عانده وانصرف عن عبادته ، تضره الربوبية التي يعاندها والمجَازِي الذي يجازيه بعمله ، إذن : فما معنى : ﴿ يَضُرُّهُۥ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الحج] هنا ؟

المعنى : لا يضره إن انصرف عنه ولم يعبده ، ولا ينفعه إنْ عبده : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحج] نعم ضلال : لأن الإنسان يعبد ويطيع مَنْ يرجو نفعه في أيِّ شيء ، أو يخشى ضره في أيِّ شيء .

وقد ذكرنا سابقاً قول بعض العارفين : (واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه) ، ولو قلنا هذه المقولة لأبنائنا في الكتب الدراسية ،